هاجس التجريب عند الرو ائية زهرة ديك

الدكتورة: مسلوب أسماء
جامعة بومرداس

الملخص:

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تبيان مدى استيعاب الروائي الجزائري لمفهوم التجريب وكيفية تجلي ذلك في نصوصه الروائية ، وهل كانت ممارسة الروائي الجزائري بطريقة واعية ومعرفة مبنية على أسس و خلفيات نظرية أم أنها ولدت من رحم الظروف السائدة و المعاناة الإنسانية، وذلك انطلاقا مما صرّح به الروائيون أنفسهم منتقين قلما نسويا " زهرة ديك" التي اعتبرت نفسها من الذين يتخذون من التجريب هاجسا إبداعيا ويعتبرونه لازمة لانجاز نصوص حية مفعمة بالمصداقية و بمحاولات تطور بنية الرواية الفنية ، وأن من حقها التعدي على السائد و الخروج عن قواعده المعهودة لبلورة رؤى فنية معينة لهذا لابد أن يظل المبدع على أهبة التجريب و الإنتاج . سنحاول الاستفاضة و التفصيل في هذه النقاط و غيرها مدعمين ما ذهبنا إليه بأمثلة وشواهد وتصريحات انتقيناها من المراسلات والمقابلات التي أجريناها مع الروائية.

Résumé:

Nous allons essayer, à travers cet article, de montrer le degré d'assimilation du concept d'expérimentation par le romancier algérien et la façon dont il est reflété dans les romans. Il est question également de savoir s'il s'agit d'une pratique consciente et savante par le romancier algérien étayée par la connaissances des principes et théories, ou bien s'agit-il d'une pratique née des conditions prévalentes et des souffrances de l'humanité, et ce à la base des déclarations des romanciers, eux-mêmes, qui ont choisi une plume féminine « Zahra Dik» qui se considère l'une des romanciers faisant de l'expérimentation une obsession créative voire une nécessité pour élaborer des textes vivants pleins de crédibilité et de tentatives à même de faire évoluer la structure artistique du roman, et qui se donne aussi le droit de transgresser les règles usuelles afin de développer certaines visions artistiques: ce qui fait de l'expérimentation et la production une nécessité pour l'auteur. Nous

allons essayer de détailler ces points et bien d'autres à travers des exemples, citations et déclarations choisis des correspondances et des entrevues que nous avions eues avec la romancière.

شاكس التجريب النموذج الروائي التقليدي وفتح باب الإبداع على مصراعيه للروائي العربي وظهرت أسماء تبنت هذا النمط من الكتابة التي تمجد تجاوز كل ماهو تقليدي حاملة أعباء الحياة الراهنة ومن المدونة الجزائرية نذكر الطاهر وطار، واسيني الأعرج، سمير قسيمي، أحلام مستغانمي، عبد الحميد بن هدوقة، رشيد بوجدرة، أمين الزاوي، ربيعة جلطي، زهرة ديك.....وغيرهم ، فقد طال التجريب نسج نصوصها الإبداعية و حبك بنيتها الفنية و تشكلها.

ولقد كان التجريب بمثابة" استجابة لرغبة الروائيين الملحة في خرق الثابت والراكد والنمطي على مستوى النص الروائي ، وهي رؤية إبداعية مشروعة لكل روائي تواق إلى البحث عن كل جديد في صناعة الخطاب السردي الروائي و البحث عن أدوات وصيغ و تراكيب لغوية و حيل سردية"[1] بفضلها يتمكن الروائي من انتهاك نواميس الكتابة الفنية المتعارف عليها.

وهذا المنعطف الحاسم ليس من"قبيل المصادفة إذ كلما سمعنا عن احتضار الرواية كنا على موعد مع ميلاد ولادة جديدة و ثورة جديدة فيها"[2] ففي خضم الظروف التي كانت سائدة آنذاك في الأقطار العربية برز جيل " تشبّع بمرحلة التجريب على مستوى السرد فوجد نفسه أمام ضرورة البحث عن شكل يتلاءم مع السياق الجديد للتلقي و الإنتاج"[3] وذلك لمواكبته.

ومن بين الروائيين الذين وظفوا التقنيات الجديدة رافضين ما ميز تقنيات الإبداع في الكتابة الروائية التقليدية انتقينا قلما نسويا مميزا "زهرة ديك" من بين أهم الأقلام الجزائرية المبدعة التي دعت إلى" التحرر من قيود الرواية الكلاسيكية و النزوع إلى الاستقلال والنزوع إلى الاستقلال عن الخطاب الإيديولوجي المهيمن، وإسماع أصوات الذات المقموعة و الانغماس في قضايا الواقع و التباساته ، والعناية بالطرائق الفنية الجمالية و النزوع إلى التجريب و الوعي المتزايد بالكتابة من حيث هي مغامرة في ذاتها[4]ولهذا الرواية" جنس أدبي في تطور مستمر و دائم "[5] لمسايرة التطورات الحاصلة على جميع الأصعدة.

ولوضع المفهوم وكيفية استيعابه و توظيفه وعلاقته بالمجتمع ارتأينا وضعه على المحك بالتقرب أكثر من الروائية نفسها "زهرة ديك" - كما سبق الذكر- أجرينا مقابلة* استفضنا فيها حول قضايا و إشكاليات مهمة حاولنا أن نترصد أهم ما أدلت به سنحاول إيراده.

الرواية حاليا هي أكثر الفنون الكتابية ازدهارا و انتشارا ، هناك من يرى أنها تتغذى على أزمة الإنسان و كآبته ، و ثمة من يرى أنها ليست مكلفة بتغيير الواقع أو إصلاحه أو تزيينه بقدر ماهي مطالبة بالمساهمة مع تفاعلات إبداعية في تأسيس نواة كيانية إنسانية سليمة نافعة و متصالحة مع نفسها ووقتها، ولكن ماهي مواصفات الرواية الناجحة و الرائجة؟ و كيف يمكن للرواية أن تحقق الهدف الذي وجدت من أجله، و تصل إلى الحد الذي رسمته لنفسها منذ بدأ الكتابة؟...الجواب على هكذا سؤال يتوقف على معرفة أهواء و أهداف و مقاصد المبدع فهناك من يكتب ليمارس مطلق القول و الصدق فيصنع كثافة الصدمة و تشرق كلماته في وعي القارئ أينما كان و كيفما كان، وهناك من يكتب ليخلف أثرا مميزا يخلد اسمه أو ليثبت لنفسه وللآخر أنه يتقن فن الحياة ويتدرب عليه مع كل منجز، والكاتب الحقيقي كما يقول "ماكس جاكوب" هو الذي لا يكتب بالكلمات بل يكتب بالأشياء و المشاعر، ومادامت الكتابة هي الحياة هي تدريب عن فن الحياة فالمبدع يفصل الكلمات حسب مقاسات موهبته و حقيقته و مخياله وجنونه و أحلامه،.

أحيانا نجد من يكتب كمن لا يكتب حيث يشغل القلم و يلطخ الورق فيحسب أنه يكتب ولا يدرك أنه بصدد محو جماليات ما وإمضاء غياب ما و مثل هكذا مبدع لا يشعر أنه بصدد تعذيب الكلمات وبهدلة اللغة ،و ثمة من يكتب فتنحني له الكلمات و تجله المعاني و يوقره الأسلوب لأنه يكتب فيقوض و يبني يهر و يصدم ما يجعل القارئ يلتهم صفحات الرواية التهاما و لا يخشى شيئا أكثر مما يخشى نهايتها مهما طالت أو كبر حجمها ، في هكذا أعمال يصبح المزيد هو الهدف ، هو المتعة واللذة الحقيقية رغم مشاق الكتابة المضنية، و أحيانا الكاتب تراوده تساؤلات عما إذا كان وصل إلى ما اشتهى أن يصل إليه عبر الكتابة أم أنه يطارد سرابا ، سؤال مؤرق لكل كاتب ومبدع يعيش و يكتب على أمل أن ينتج ما يحلم به و يجسد أمله في إنجاز عمل إبداعي يؤكد للآخر أن وجوده لم يكن عبثا في هذه الحياة .

وجع الكتابة لغز لخصه "آرنستو ساباتو"في سؤالين : لمن يكتب الكاتب؟ ولماذا يكتب؟ ولكن ما من إجابة كافية و مقنعة عن هكذا سؤالين غاية في العمق والتعقيد

وأشهر الأدباء الروائيين في العالم يقرون بذلك ، نذكر على سبيل المثال "بروست" الذي يصف العمل الفني ب"الحب البائس" ومادام مبدع بهكذا حجم و شهرة له هذا الرأي المرعب في العمل الإبداعي فإن مايشعر به معظم الأدباء و المبدعين في بيئتنا القاحلة أفدح من ذلك فأي إنتاج أدبي مهما كانت قيمته ليس أكثر من عمل بائس يائس عديم الجدوى رغما عنه، ولكن عناد و هوس المبدع غلاب وما يزيده هذا الإجحاف إلا التصاقا بمعاناته ليبوح في الأخير بهدم مالا يطيقه من بشاعة وزيف ويجهر برفضه لواقع نقيض لأحلامه و أوهامه.

هي حالة لا تظنها زهرة ديك خافية على كل من هو مسكون بوجع الكتابة فكل كاتب مبدع يضمر قناعة راسخة أنه مصنوع للمجد وللتميز و أحلامه لا تتوقف عن تفريج الأوهام الملتحفة ببؤس وعيه اللاهث خلف عبقرية ستأتي أكلها ذات رواية.

محكوم على المبدع في ظل واقعنا الجاحد من ملاحقة طواحين الكلمات، و هو ملزم ألا يكل من النحت على الهواء هذه الحال طبعا تنسحب على أغلب المثقفين في عالمنا العربي وليس في بلدنا فقط فالمثقف العربي مع الأسف كان و لازال منخرطا في سأم فاجع يقينه راسخ بأن لا أحد يحتفي بأعماله وبالتالي فهو يكاد ينتظر شيئا من ورائها ، وف هذا المقام نستحضر مقولة " توم زاورث" الشعراء هم الحالمون الدائمون بأن الأدب قادر على التغيير.

ما ينتظره الو اقع من الرو اية

ترى الروائية زهرة ديك أن واقعنا اليوم يطالب الرواية أن تعتنق دينا جديدا وتساهم جرأة و فاعلية في كشف المغالطات الكبرى التي يحياها الإنسان اليوم على جميع الأصعدة ، الاجتماعية منها و العقائدية و الثقافية و السياسية لأن واقعنا اليوم مشتعل بالأسئلة القوية تعتبر أسئلة جديدة أطاحت بالأسئلة البائدة المستهلكة العميقة بقيت لحقب خرساء معلقة شفاه الزمن ومحاورة الواقع لهذا أربكت التاريخ ، و لامجال لإنكار أن التغيير سقط علينا بغتة و أن الأحداث داهمتنا فجأة فلا مفر إذن أن يستدرك الإبداع فسه فبل أن يلفظه التيار خاصة مع توالي الحقب وتعاقب السلط واقعنا الثقافي يلف حول نفسه لا تغيير لا تطوير إلا من أحداث و نشاطات لا تتعدى نطاق البهرجة والاستعراض.

وكم هي معذبة صنعة الكتابة في هكذا واقع لأن الاضمحلال و الوهن لا يريان الرحيل و مهما غزارة الإنتاج تظل اللحظة ممعنة في زج الكتاب وسط دوامة العبث ، وقد جعل هذا الواقع المؤسف من إرادة تهميش المثقف عامة عادة مقيمة ورغم ذلك يظل فعل الكتابة و الإبداع حيا ينبض يتأرجح بين الأمل تارة واستحضار الخيبة تارة أخرى، لكن تبقى الكتابة عملية مضنية وذلك الفعل الذي علم الكاتب كيف يستحلب اللذة من الألم و يستخلص المتعة من الوجع ومن هكذا هباء.

فن الكتابة يشعر الكاتب أنه يحيا بفائض من الإنسانية فمع كل منجز إبداعي جديد نكسة جديدة مخيبة علاقته مع محيطه فاقدة لما كان جدير به أن يناله ، قوة الواقع خلعت عنه القيمة التي يستحقها و جردته من أهليته و أهميته فهو دوما على رأس المستهدفين من ذاك النشاط و الجهد التضليلي لكل قيمة تنويرية تحمل شهة فضح البشاعة وتعرية المسكوت عنه.

طبيعة علاقة الكاتب بالمحيط

تذهب زهرة ديك أنها منحة و معضلة ينوء بها قلب الكاتب المبدع ، مع أن مبدعي الأمس كانوا أوفر حظا من مبدعي اليوم، واقعهم وزمنهم دللهم و مجدهم عن جدارة طبعا ، وأولاهم القيمة و المكانة التي يستحقونها، ماجعل أسماء مثل كاتب ياسين ومالك حداد و الطاهر وطار ومحمد الديب و غيرهم تترسخ في الذاكرة الأدبية تك الذاكرة التي لا نحسها لاهية نافرة عن احتضان أسماء الجيل الموالي من الروائيين الجزائريين ماعدا قلة منهم ممن أسعفهم الحظ واستقطبوا الاهتمام ونالوا الشهرة في الخارج.

فالجيل الجديد من الروائيين يحمل في كلماته هما مضاعفا : هم الكتابة وهم يقينه الحزين بأنه يكتب و ينتج وهو يعرف أن لا أحد سوف يحتفي بأعماله لكنها رحلة نضال و مكابدة المصاعب و ما الأدب كما قال عنه المفكر الراحل " الطاهر بن عيشة" إلا شكل من أشكال النضال.

ما الرو اية؟

اتفق كثيرون على أن مصطلح الرواية عصي عن التعريف وهي كجنس أدبي لا تقبل أي تعريف فهي كالحياة في تركيبتها و غموضها وعبثيتها لكن ثمة من يصفها بالكتاب " الوحيد المضيء عن الحياة وهي توازنك على رياح الدمار التي تهب عليك من كل الجهات" هذا ما يقوله د.ه.لورنس ولا شك أن الكثيرين لا يوافقونه الرأي لأن تعريف الرواية ينبثق من ذاتيته و شخصيته و تركيبته الذهنية و الثقافية، هي عالمه الداخلي بكل ما يعتمل

فيه من متناقضات و أهواء و مشاعر و أحلام و هواجس وتجارب، فكيف يمكن إذن أن يتم الاتفاق على تعريف محدد و موحد للرواية، وبالنسبة للروائية زهرة ديك الرواية هي " ذاك الفعل الذي يخلصني من هياج القلق الذي يسكنني و ما يتيح لي التفاعل مع قطعة من الحياة بأمكنتها و شخوصها وزخمها بكل حرية وصدقية و مخيالية ، وقد أتخذها ملاذا أحتمي به من بشاعة الواقع " كما حدث في رواية " في الجبة لا أحد" وهي نص على صغره جاء مليء بالرعب ، انتظار الموت بطله الرئيسي ، وتسير أحداث الرواية على وقع الهلع و الخوف و الدم ماجعل شكل السرد ممسرحا يورط القارئ و يزج به في ذاك المناخ الفاجع.

وقد صرحت الروائية أن أكبر همها عند كتابة النص يتمثل في إظهار كم كانت اللحظة مفزعة و مميتة ما جعل جميع المشاهد مفعمة بغياب الأمل في النجاة من شبح الإرهابيين ونفس الأجواء المفجوعة تقريبا على روايتها الأولى " بين فكي وطن" والتي عبارة عن صرخة رفض ذلك الواقع الدامي وتلك الفترة الحالكة التي عاشتها الجزائر خلال تسعينيات القرن الماضي تلك الرواية كتبتها الروائية بدافع لاوعي يتمثل في ربما في التخلص من تراكمات الفجائع و الخوف بسبب الأحداث المأساوية التي شهدتها العشرية السوداء في الجزائر، وأيضا بدافع واعي يتمثل في التصدي وفضح الأعمال الإجرامية التي كانت تقترف خلال تلك الفترة العصيبة من تاريخنا.

كل هذه المناخات السوداوية التي طغت على الروايتين السابقتين اختفت في رواية "قليل من العيب يكفي" هذا النص جاء ملامسا للنفسية المتأزمة للفرد الجزائري وحتي تثبت للقارئ أنها تخلصت من مخزون الخوف و الألم الذي خلفته فترة التسعينيات فتعمدت الروائية أن تجعلها مليئة بالسخرية السوداء، وتدور أحداث الرواية في فترة مابعد الأزمة التي مرت بها الجزائر وفي مناخ تخلص من خطر الإرهاب و الموت بطلها "بهتة" وهو صحافي مليء بالانكسارات و الخيبات ، لم يسعفه الحظ في تحقيق ما يصبو إليه من نجاح مهني و اجتماعي ما جعله يقضي وقته في تجرع مرارة يومياته المليئة بالمشاكل و المنغصات بطريقة خارجة عن المألوف وفي النهاية يحتمي وفي الأخير يحتمي بالجنون للتخلص من عذاباته و نكساته ، لكن كل ذلك لم يقض على جذوة الحب في قلبه الذي تعلق بزميلة له في العمل ويبحر العاشقان في علاقة عاطفية تتسم بالغرابة في الأقوال و السلوكات .

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

الجمالي و التجريبي في الرو اية

اعتبرت الروائية زهرة ديك نفسها من الذين يتخذون من التجريب هاجسا إبداعيا لأن للواقع و للمتغيرات أثرهما في الحياة وفي الإنسان فلابد أن تكون ممارسة التجريب لازمة لإنجاز نصوص حية مفعمة بالمصداقية و بمحاولات تطوير بنية الرواية الفنية ففي كل عمل تجد الروائية نفسها و كأنها مسكونة بهاجس السعي للقبض على نمط سردي آخر وقدرة الانتهاج الفذ الموصل إلى شكل روائي ليس كغيره، شكل مؤهل لبلورة رؤى فنية معينة تضمر التفوق على السائد و تجاوز المألوف وعليه فإن لكل مبدع تعريفه للتجريب ولكل هدفه و قدرته، وهو يشكل بالنسبة للروائية " مجازفة إبداعية و تلبية لهاجس التفوق على السائد و القبض على شكل مبتكر للنص الأدبي لبلوغ شكل حكائي ليس كمثله شكل .

ومن هذا المنطلق تمنح زهرة ديك لنفسها ككاتبة الحق في التعدي على السائد والخروج عن قواعده المعهودة ، فهو إذن لازمة العملية الإبداعية، و الروح المولدة لنص مأهول بحيرة الأسئلة ونهم الكشف و المجازفة لخوض متاهات لا الكاتب و لا القارئ يعرف منتهاها.

والتجريب على ضوء الراهن في حيرة من أمره خاصة ما يتعلق بالرواية العربية عموما، فهي منهمكة في مراجعة جمالياتها و تقنياتها و لغتها و رهاناتها كيف لها أن تتعاطى مع الواقع وعم المتغيرات و الأزمة العامة مع تحول الذائقة العامة خاصة مع الحاجات المستمدة للقارئ فتقف في مفترق متاهات تواجه الخطر و الخوف على نفسها بوصفها منتوج بشري وجنس أدبي مطالب بالمساءلة و الكشف ، ومع أن الأمر يبدو كأزمة حقيقية تعيشها الرواية العربية لكن ذلك لا يمكن إلا أن يكون مدعاة للتفاؤل والثقة بأنها ستوفق في خياراتها الفنية ، وفي تفكيرها المعاصر وبالتالي ستحسم أمرها وتفرض وجودها لا محالة كنسق ثقافي إبداعي وستصمد و ستداعب روح الزمان بمهارة وتفوق و ستتمكن في الأخير من الظهور بالصورة التي ترضي بها نفسها و عصرها.

ولعل ما يكابد العالم اليوم من صدمات و هزات سياسية و اقتصادية واجتماعية ومخاطر أمنية قلب كيان الأرض و البشر ، وسلط أسئلة كبيرة على الرواية و على المبدع أنتجتها عوامل متشابكة و متداخلة و معقدة منها تكنولوجيا الاتصال المتفجرة بلا توقف، كوارث إنسانية و دمار حربي إرهابي إفلاس اقتصادي و إعلام تضليلي كلها مخاطر جعلت المنظومة الإبداعية عامة تعاني و لا تعرف أي آليات تستعملها لالتقاط تفاصيل الواقع و ما يحدث للإنسان و الزمان على مرأى منها و لاتعرف أي المواضيع و أي الغوايات الإبداعية التي يمكن للكاتب أن يوظفها لاستدراج قارئ اليوم الذي صعب المراس منجذب للأسهل و الأسرع و الأبسط، فكيف للمبدع أن يفك هكذا معادلة غاية في التعقيد.

وربما حياة الرواية اليوم مرهونة بمدى قدرة المبدع على ملاحقة عصره بشتى مكوناته و متغيراته، و امتلاكه لآليات فنية مؤهلة للتعاطي مع الواقع بالطريقة التي يستوعبها ويتفاعل معها إيجابيا ، وأن يظل دوما على أهبة التجريب و الإنتاج.

وتظل الرواية الجنس الأدبي الوحيد الذي لم يكتمل بعد و يستعصي على التعريف وهذا ما يعكس العلاقة الطردية بين الرواية و الروائي الإنسان، فالتغيير في الرواية وبناها السردية يتبع ما يطرأ من تغيير على حياة الإنسان و أوضاعه في جميع المجالات ولهذا تراجعت الحاجة إلى اللجوء للنموذج الكلاسيكي في الكتابة فهو لم يعد يلبي حاجيات الفرد ويعبر عن أفكاره و ما يختلج بخلده فهدمت البنية المعمارية للرواية استجابة لتطلعات الروائي فهو المرآة العاكسة لمجتمعه ولسان حاله لأنه جزء لا يتجزأ منه لذلك ينبغي أن يكون الروائي تجريبيا " لأن الحياة الاجتماعية تبدو له كمختبر شاسع، وموقع أفعال وردود متواصلة وينبغي للرواية التي تمثل الحياة الاجتماعية أن تصور هذه التفاعلات وإلا أخطأت موضوعها و الإنسان المجتمعي من طبيعته أن يكون موضوعا للتجريب[6] ولقد آن الأوان أن تحل روايات الملاحظة والتجريب التي صارت في البحث العام في الطبيعة و في الإنسان محل روايات الخيال المحض[7] التي لاتعبر إطلاقا عن الواقع الاجتماعي و الثقافي والاقتصادي .

الهوامش و الإحالات:

1.عبد القادر عميش: الخطاب بين فعل التثبيت و آليات القراءة، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع و النشر، الجزائر،2013،ص154.

2.أنايس نن: رواية المستقبل ، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، 1983، ص6.

3.سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة-الوجود والحدود-، الدار العربية للعلوم ناشرون،دار الأمان، منشورات الاختلاف، بيروت، المغرب، الجزائر، ط1، 2012، ص64.

4.حسن المودن: الرواية و التحليل السردي، ص102.

*مقابلة أجريتها مع الروائية شهر مارس 2016.

5. ميخائيل باختين: الملحمة و الرواية، ترجمة و تقديم: جمال شحيذ، الفكر العربي، بيروت، 1982،ص66.

6.بيير شارتييه: مدخل إلى نظريات الرواية، ترجمت: عبد الكريم شرقاوي، دارتوبقال للنشر، المغرب، ط1،2001، 155.

7.المرجع نفسه: ص156.